على شاطئ النهر :

من مفارقات التفكير . . . !

الأستاذ اسماعيل مظهر وكتاب الأغلال

للأستاذ سيد قطب

لا يزال الإنسان يصادف بين آونة وأخرى صنوفا من مفارقات التفكير ، ما كان ليتصورها لو لم تقع فعلا فى الحياة ، وتبدو آثارها للعيان . فقد تجد الرجل المحقق المتفوق فى علم أو فن ، يبدى فيه الرأى ، فإذا له الكلمة الصائبة ، والنظرة النافذة ... ثم يجاوز مادة تخصصه إلى شأن آخر ، فيأتى بالكلام الذى لا تصدق نسبته إليه إلا إذا قامت لك البراهين على أنه هو قائله ؛ لأنك تجد عندئذ رجلا آخر لا تعرفه ، دون ذلك الرجل بمراحل ومسافات .

وأقرب مثل يحضرنى اليوم هو الأستاذ اسماعيل مظهر . فما لا شك فيه عندى أن الرجل مثقف مطلع ، ذو مشاركة طيبة فى الحركة الفكرية المعاصرة .. ولكننى رأيته يكتب فى جريدة الكتلة مرة ومرة عن كتاب « هذى هى الأغلال » بطريقة عجيبة ، فمرة يقول : إنه يساوى ثقله ذهباً ؛ ومرة يرتفع بصاحبه على مقام جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ! ويخلو أسلوبه على كل حال من التمحيص والاتزان اللذين أعهدهما فيه ...

وعجبت من أن يكتب رجل كالأستاذ اسماعيل بمثل هذا الأسلوب ، وأن يعتقد فى مثل هذا الكتاب وصاحبه ذلك الاعتقاد ... وظللت متحيراً فى هذه الظاهرة العجيبة . وكنت قد قرأت الكتاب فوجدت صاحبه يتعلق بالتافه من خرافات العوام ، ومن الأضاليل الخرافية التى حاربها الزمن فى البيئة الإسلامية وانتهى من حربها منذ خمسين عاما أو تزيد . يتعلق بهذا التافه فيصول ويجول فى الكفاح والنزال ، ويبدو — كما قلت فى مجلة السوادى — فى هيئة « دون كيشوت » يطعن فى الهواء يحسب طواحين الهواء فرسانا ، وزقاق الخمر قساوسة !

والانجليز من الفروق ما لا يوجد مثله بين مصر والسودان — فتقول : سوف أكون أمة وحدى ودولة وحدى . أفترى إنجلترا تقول يومئذ نعم ونعمة عين وتخلى بينهم وبين ما يريدون ، أم تخضعهم يومئذ بقوة السلاح وبالحديد والنار كعادتها فى كل بقاع الدنيا ؟ ونحن ولله الحمد ليس بيننا وبين السودان مثل هذا ، بل السودان كله ، إلا من طمس مال الانجليز قلبه ، كلمة واحدة على أنه جنوب مصر لا أنه أمة وحده أو دولة وحده . إن مصر لا تستطيع أن تفرط فى بتر السودان من جسمها ، فان فى ذلك هلاكها وهلاك السودان جميعاً . فليقلع عن هذا الرأى كل من غفل عن حقيقة الوطن المصرى أو الوطن السودانى ، فمعناهما سواء .

بقى شىء واحد هو أن إنجلترا قد خرجت من هذه الحرب فى المرتبة الثالثة من دول العالم . فإذا جاءت الحرب الثالثة فانجلترا خارجة منها لا محالة كما خرجت فرنسا — أى إنها سوف تخرج ولا تملك غير الجزيرة البريطانية إن بقيت لها ، فعلام نربط مصايرنا بمصير مظلم يفزع أهله منذ وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؟

وكان ينبغى أيضاً أن لا يغيب عن أذهان أولئك الأذكياء أن هذه الفرصة إذا أفلتت فلن تعود ، فإن انجلترا اليوم لا تملك أن ترغمنا على شىء ، وإنها لتهددنا وتبدى وتعيد فى تهديدها ، ولكننا إذا صبرنا وعزمنا وأبينا ميسم الذل الذى تريد أن تسمنا به ، فهى لن تملك إلا التسليم بلا قيد ولا شرط . فكان عليهم أن يكونوا أبصر بخير هذه الأمة المجاهدة المصرية ، وأجرأ على تلك الأمة الانجليزية ، ولو فعلوا لرأوا عجباً ، فإننا إنما أتينا من قبل الخوف والهيبة والعجز عن إمضاء العزيمة على وجهها ولكن لم يفت الأوان بعد ، فاحملوا على أنفسكم أيها المفاوضون المصريون واملأوا قلوبكم إيماناً بالله ، وإخلاصاً للوطن ، وأجمعوا رأيكم وارفعوا النير عن هذا الشعب بالإباء والأنفة والحمية ، ورفض المفاوضة والمعاهدة ، فإن إنجلترا لن تملك يومئذ صرفاً ولا عدلا ، فإن لم تفعلوا فالله من ورائكم محيط . واحذروا غضبة الشعوب فان لغضباتها مواسم كمكّ النار هى ذل الدهر وسُبّة الأبد .

محمود محمد شاكر

ثم ينتهي في التواء إلى أن هذه هي العقلية الدينية الإسلامية ؛ فهي إذن عقلية لا تصلح للحياة ولا لوراثة الأرض . بينما الأوربيون يتبعون منطق الحياة ، فهم إذن أولى بوراثة الأرض من أصحاب العقلية الدينية . وإذن فما يحق للشرق أن يثور على استعمار ولا أن يحنق على مستعمرين ! وتلك هي النتيجة الحتمية لكل مقدمات الكتاب . ولعلها هي الهدف الأول الذي لف في طواياه !

ولاينتهي الرجل إلى هذه النتيجة وحدها ، عن هذا الطريق الملتوي المليء بالمغالطات ، إنما ينتهي إلى نتيجة أخرى — لعلها هي التي قادته إلى سلوك هذا المسلك المريب ؛ ولعلها كانت رائده في كتابه وفي حياته .. تلك أن العنصر الأخلاقي يجب أن ينفى من الحياة . فكل ما يقال له روح وضمير وخلق ودين ... إن هو إلا « أغلال » ومعوقات وتعلات فارغة لا تجدي ؛ والمعول في الحياة على القوة المادية : قوة الصناعة والتجارة والمال !

ولعل الرجل يطبق في كتابه وسلوكه تلك المبادئ الذهبية ! أقول عجبت من أن يبذل الأستاذ مظهر إعجابه كله لمثل هذا الكتاب المريب في هذا الأوان ، إلى درجة أن يستخفه الإعجاب ، فيفارقه ما عرف به من النفاذ والتؤدة والاتزان ... ولكن أخيراً تكشف لي السبب ، فبطل مني العجب ؛ وذلك في كلمة افتتاحية في المقتطف الأخير عن كتاب « هذي هي الأغلال » أيضاً !

إن الأستاذ اسماعيل فيما يظهر قد استغرقته الدراسات الفلسفية والدراسات العلمية — وفي أوربا خاصة — فلم يجد وقتاً يتتبع فيه الحركة الفكرية في الشرق العربي — وفي مصر خاصة . فظل يعتقد مخلصاً في اعتقاده أن أهم ما يشغل بال المسلمين في الآونة الحاضرة من أمور دينهم ودنياهم مسائل من نوع : [الكلام في مثل ما تكلم فيه السيوطي في كتابه « كشف المعمى في فضائل الحمى » وكتابه « الطرثوث في فضل البرغوث » أو ما تكلم فيه ابن حجر العسقلاني في كتابه « بذل الماعون في فضل الطاعون » أو ما ترى في كتب المناقب وغير كتب المناقب في الخرافات التي تهلع لها قلوب الأحرار ، والأساطير التي تهتز لها الأرض وتفزع السماء ، أو البحث في من يحمل فوق ظهره قربة ملئت فساء هل تصح صلاته بها ام ينتقض وضوؤه] كما كتب في هذه الافتتاحية العجيبة !

وهذه هي الخرافات التوافه التي أخذ المؤلف يبدئ فيها ويعيد ، ويصم التفكير الإسلامي كله بأنه يسدر عنها ؛ ثم أخذ ينازلها كما نازل « دون كيشوت » طواحين الهواء ، ويشقها بسيفه كما شق « دون كيشوت » زقاق الخمر ! والتي خيل للأستاذ مظهر أنها كذلك تشغل بال المسلمين في هذه العصور ، فأخذ بالقوة التي يهاجمها بها مؤلف الأغلال ، فقال :

« أنتصر لهذا الكتاب ، لأني أشتم فيه ريح القوة والجبروت والعزة التي هي من صفات الإسلام ، وليست من صفات المسلمين ! !

وهنا زال عجبي وعرفت القصة . فالأستاذ اسماعيل مظهر بقدر ما هو عالم ومطلع في الفلسفة الحديثة والعلم الحديث ، بعيد كل البعد عن حركة الفكر الإسلامي في القديم أو في الحديث . فكل حديث عنها في نظره إعجاز وإبداع ! !

ومثل إعجابه البالغ الذي لا يتحفظ فيه بهذا الكتاب كمثل من يعجب أشد الإعجاب برجل يشهر حرباً شعواء على من يقولون : إن الأرض محمولة على قرن ثور . فما تزيد معظم الخرافات التي تصدى لها المؤلف في أهميتها اليوم وفي مقدار اعتقاد الناس فيها ، على اعتقاد بعض العامة أن الأرض محمولة على قرن ثور !

ويا ليت إخلاصاً يبدو في ثنايا الكتاب ، حتى مع هذا التحمل وهذا التزوير المدسوس على عقلية الشعوب الإسلامية في العصر الذي نعيش فيه ؛ إنما هنالك الريبة التي تخالج القارئ حين يذهب في القراءة إلى النهاية ، فيشم رائحة غير نظيفة تشيع بطريقة ملتوية خبيثة ، رائحة إشعار الأمم الشرقية بأنها لا تستحق وراثة الأرض ، ولا تستحق سوى العبودية والذل ، وأن الأمم الأوربية هي التي تستحق هذه الوراثة ، وأن العرب خاصة في حاجة إلى حماية الانجليز والأمريكان لهم ، لأن الخطر الصهيوني يتهددهم وهم عزل من كل قوة ، ولا سند لهم إلا قوة خصومهم من الانجليز والأمريكان !

ترى هذه هي « ريح القوة والجبروت والعزة التي يتحدث عنها الأستاذ اسماعيل ؟ اللهم إن رجلا بعيداً عن كل اتصال بحركة الفكر الإسلامية ، راعته البديهيات الساذجة التي يسوقها رجل مريب ، فلم يتنبه في — زحمة الروعة — لهذا العنصر المريب !!

***

وكتب الأستاذ « عبد المنعم خلاف » في عدد « الرسالة » الماضي يشير إلى ما نبهت إليه من سرقة المؤلف لأفكاره في كتابه « أومن بالإنسان » وادعائه أنه لم يسمع بموضوع هذا الكتاب!

قلت فى كلمتى بمجلة (السوادى) إننى لم أحترم هذا التجاهل ، لأنه ليس سمة الباحثين المخلصين . وقال الأستاذ عبد المنعم بعد أن قرر أنه فرح لانتشار فكرته التى دعا إليها ست سنوات ، فكرة الإيمان بالإنسان والاعتقاد بأن الحياة صادقة .

«ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسى ووجوم واشمئزاز إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبق فى هذه الدعوة ، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله ، ويصدر غلافه بهذه الجملة :

(سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل .. وإنه ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة ...) كأن مؤرخى الفكر عميان لا يتلمسون مصادر الآراء !

«وإنى أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأى الناس ، ويستحى من نفسه . أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتتان والزعم !

«إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً ، يضع آثاره بين يدى التاريخ فى صمت ، ويدع له أن يحكم ، ولا يتعجل الحكم حتى تعلنه الأيام سواء فى حياته أو بعد مماته ... والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره ، وعن أن يغطى جهود من سبقوه بالدعاوة الجريئة لنفسه ، لأن هذا إن جاز فى مجاز الإعلان عن التاجر والمهن ، فلن يجوز فى رحاب الفكر والخلق .

ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق ، وهو كما روى عنه الأستاذ سيد قطب فى مجلة « السوادى » يرى (أنه يجب أن ننفى العنصر الأخلاقى من حياتنا ، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ، ولا قيمة لها فى الرق والاستعلاء) » .

والأستاذ عبد المنعم يحاكم الرجل إلى مبادئ ومثل يقول هو عنها : إن التشبث بها هو سبب تأخر الشرق وجموده . فما الخلق ؟ وما الضمير ؟ وما الحياة ؟ إنها كلها « أغلال » تقيد الخطو وتخلق العثرات . إنما المهم كما يقول هى الأخلاق الصناعية والتجارية والمالية ! !

والواقع أنها جرأة عجيبة ، ولكن لماذا لا يجرؤ الرجل ، وفى مصر كتاب كبار لا يتنبهون لهذه الجرأة العجيبة ، فيسبغون على فكرة مسروقة ومستغلة استغلالا مريباً كل هذا الاهتمام والإعجاب ؟

ولكننى أعود فأستدرك . فلعل هناك اتهاماً للأستاذ عبد المنعم ، وطعناً فى ضميره وخلقه ووطنيته حين نذكر أن فكرة الأغلال مسروقة من كتابه « أومن بالإنسان » .

إنها مسروقة نعم فى عمومها وفى الكثير من قضاياها ، ولكن الأستاذ عبد المنعم كان يعالج فكرته فى استقامة ونزاهة ، ويحسب للدين وللخلق وللضمير حسابها فى قيم الحياة ، وحين دعا إلى الإيمان بالإنسان مستدلا بما أبدع فى الأرض بفكره ويده ، لم ينس أنه يهدف إلى قضية أكبر ، وهى قضية الإيمان بخالق هذا الإنسان وقضية التسامى بضمير هذا الإنسان .

ولقد وافقت الأستاذ عبد المنعم على قضيته وأهدافه ، وخالفته فى طريقة استشهاده ، ووددت أن يفسح للوجدانات الروحية ، وللأعمال الفنية مكاناً أكبر فى الاستشهاد على عظمة هذا الإنسان ، ليكون نشيد الإيمان به أوسع وأشمل ، حين نضم إلى إبداع فكره ويده إبداع وجدانه ومشاعره .

أما هذا الرجل ، صاحب الأغلال ، فيأخذ الفكرة لينحدر بها انحداراً عن مستواها ، وليبدو فيها ضيق الآفاق لا يتصور أن الإنسان جسم وروح ، وأن الحياة مادة ومعنى . ثم ليستخدم الفكرة فى الزراية على الشرق عامة والمسلمين خاصة ، وليحطم فى نفوسهم كل شعور بالعزة ، وليسوّد عليهم مستعمريهم ، وليثبت هم أنهم فى حاجة إلى قوة هؤلاء المستعمرين ، إلى أن يتخذوا طريقهم فى الإنتاج !

وما يخدم قضية الاستعمار فى طورها الحالى كما يخدمها بث هذه الروح . وإذا كان الشرق يعتز فى جهاده للاستعمار بماضيه وبعقائده وبكرامته القومية ، وبعدد من مثل هذه المعنويات . فهذا رجل منه يقول له : إنما تعتز بترهات جوفاء . والمستعمر أحق بورائة الأرض منك ، فلتحن هامتك إذن ، فتلك سنة الحياة !

وبدلا من أن ينبه النقاد الكبار إلى هذا الاتجاه المريب يؤخذون بالدعاوة المفتعلة ، ويبذلون إعجابهم المطلق للكتاب وصاحب الكتاب ! والرجل والحق يقال : ماهر فى الدعاوة ، لا تقيده فيها الأغلال ! !

ألا إنه لكتاب يساوى ثقله ذهباً ، كما قال الأستاذ مظهر . ولعل من تهمهم مثل هذه الكتب لم يبخسوا الكتاب قدره وكل الدلائل تشير إلى أنهم لم يبخسوه قدره ، والحمد لله !

سيد قطب